جامعة دمشق – كلية الآداب – قسم الفلسفة

دراسات عليا

مقرر فكر عربي معاصر

المحاضرة ٥ + ٦

تاريخ ٢٠٢٠/٤/١٥

تاريخ ٢٠٢٠/٤/٢٢

عنوان المحاضرة: الفكر العربي الحديث (تتمة)

أ.د. فارس النداف

وسأحاول الآن، ضمن المخطط الذي رسمته لنفسي أن أكشف عن المراحل التي مر بها الفكر العربي في سورية في محاولته لجعل العروبة حقيقة واقعة، وهذه للمراحل هي ثلاث كما قلنا:

ب-**الحريات السياسية مطلباً أولاً** :

بدأت العروبة أول ما بدأت مطلباً سياسياً يقوم على مناهضة الاستعمار العثماني ومن ثم الفرنسي وعلى تأكيد الوجود العربي في أصالته الأولى تأكيداً شعورياً عاطفياً مضمونه غائم. وما أن بدأ الانتداب وبدأت معه التجزئة والاستغلال الاقتصادي المنظم (إذ أن الاستعمار العثماني كان في أواخر عهوده، فوضوياً لحد بعيد) حتى بدأت تتوضح الابعاد الأولى للفكرة العربية فهي :

1- الحريات السياسية بكل أشكالها: حرية الفكر، إنشاء الاحزاب والجمعيات الخ....
2- المطالبة بوضع دستور يضمن للدولة سيادتها. ولقد تضمنت كل الدساتير ومشاريع الدساتير التي وضعها السوريون مادة خاصة تؤكد عروبة سورية وكونها جزاً لا يتجزأ من الدولة العربية الكبرى.
3- سيادة القانون، وانبثاقه عن الشعب الممثل في نوابه ومنظماته الحزبية. كانت سورية عملياً في أيام العثمانيين قد انطوت على ذاتها وتجزأت إلى وحدات طائفية وعنصرية ومذهبية وعائلية، لكل منها مصالحها الخاصة، لا بل بلغت التجزئة حداً لا يمكن أن يتصوره إلا الذي عاشه. فدمشق مثلاً كانت في الواقع مجموعة أحياء لا يربطها ببعضها إلا رقعتها الجغرافية .وكانت إرادة السلطان وحدها هي العنصر الموحد. وفي أيام الانتداب حلت إرادة السلطان. واتخذت التجزئة شكلاً رسمياً فقسمت سورية إلى أربع دويلات : وأصبح لبنان دولة مستقلة وسلمت فلسطين للانتداب الانكليزي الذي جعل من قسمها الغربي وطناً لليهود. ويشعر السوريون بأن أول ما عليهم أن يحققوه هو إنشاء رابطة المواطنة للقضاء على الطائفية والعنصرية، الخ .... والمطالبة بسيادة القانون لمناهضة أهواء الحاكم وعملائه في الداخل .
4- حقوق الإنسان ومن المعلوم أن هذه الحقوق هي أساس الدستور والقانون ورابطة المواطنة في الدولة البورجوازية الليبرالية.

ومن الواضح أن هذه المطالب تبلورت تدريجياً بتأثير افكار الثورة الفرنسية. ولقد كان لأفكار هذه الثورة وقيمها أثر كبير في النهضة العربية منذ فجرها الأول وبشكل خاص أيام الانتداب .

فمن يراجع الآن ما كتب إذ ذاك في الأدب والفكر يلاحظ بما لا يترك أثراً للشك، تأثير روسو وفولتير وديدرو والموسوعيين، ومن ثم مع تغلغل نفوذ فرنسا

الثقافي، تأثر دركهايم و أوغست كونت وغيرها من اعلام الفكر الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ويمكن القول أن الفكر السياسي والاجتماعي في سورية بين الحربين كان وليد الراديكالية الفرنسية التي سيطرت في فرنسا ذاتها إذ ذاك .

وفي تلك الفترة بدأت الافكار اليسارية في شكلها الماركسي بالظهور في جو سورية ولكنها لم تترسخ لا بين المثقفين ولا في الأوساط الشعبية، وذلك لثلاثة أسباب الأول لأنها لم تتخذ شكل منهج لتحليل الواقع السوري والعربي، الثاني لأنها التبست مع الليبرالية في المطالبة بالحرية السياسية، وكانت هذه المطلب الاساسي للشعب إذ ذاك، وأخيراً لان الانتداب قاومها بشدة بالرغم من أن اليساري الفرنسي كان طرفاً عند وضع معاهدة 1936 . الحزب الاشتراكي الفرنسي .

كما أن الافكار الفاشية بدأت هي أيضاً بالتسرب إلى بعض أوساط المثقفين بدعم خفي من محور (ألمانيا ايطاليا – اليابان)، ولان بعض الجماهير رأت في الحور سنداً يعضدها في مناهضة الاستعمار الفرنسي - الانكليزي، تبعاً للقول المأثور (عدو عدوك صديقك) .

والواقع أن كل هذه التيارات لم يكن لها إلا أثراً واحد هو ايقاظ الوعي على المشاكل الكبرى عند المثقفين وبين الجماهير،ولكنها كلها لم تنفذ إلى صميم الواقع لأن الانتداب، كما قلنا حاول بكل مالديه من قوة، الحفاظ على الوضع الاجتماعي القائم، هذا الوضع الذي كان في صميمة عشائرياً، وعائلياً واقطاعياً، ومن المعلوم أن الحرية السياسية لا تتحقق إلا إذا أصبحت حرية اجتماعية قوامها الشعب العامل،وأن الاستقلال لا يكتب إلا إذا أصبح اقتصادياً، وأن الدستور يبقى حبراً على ورق طالما أنه يوضع ويعدل في مكاتب محترفي السياسة.

ولذا بقيت فكرة العروبة شعاراً عاطفياً غائماً لا نقطة ارتكاز له في الواقع.

<u>جـ -على مفترق الطرق:</u>

وتقرع طبول الحرب فيلغي المستعمر الحريات المقنعة التي كان قد منحها للشعب السوري ويعلق النشاط السياسي، ويتسلم زمام الحكم مباشرة بعد أن يحول سورية إلى ثكنة كبيرة تشعلها جيوشه، ولكن أحداث الحرب الهائلة التي تسارعت زادت في وعي الشعب السوري وها هو يلتقط أدق الاخبار يسائلها عن المصير، وينفتح على كل الايديولوجيا لينفي منها ما يتفق مع مطالبه وتحين الفرص ليستعيد نضاله واستقلاله، كانت هذه الفترة، كما قلنا فترة قلق، أو فلنقل الآن فترة مخاض، فالأفكار كلها تطرح على بساط البحث والإيديولوجيات تصطرع في أعماق النفوس كما تصطرع على كل مستويات الحياة الاجتماعية.

- والإيديولوجيات إذ ذاك ثلاث:

1- الراديكالية الفرنسية التي ، وإن كانت قد هزمت سياسياً، ما تزال في نظر الكثيرين صيغة صالحة للتعبير عن الحرية ولتحقيقها.

2- الايديولوجية النازية اليي استهوت بعضهم لارتباطهم استعمارياً بها، واستهوت البعض الاخر جهلاً لما فيها من اشادة بالقومية، واستهوت أخيراً الجماهير لأن اتباعها سحقوا الاستعمار الفرنسي.

3- الايديولوجيا الاشتراكية التي ترسخت تدريجياً لأنها بدت لبعض المثقفين أكثر جذرية من الليبرالية، فهي تتناول المسألة القومية انطلاقاً من اساسها الأول، أي من الجماهير الشعبية العاملة.

قلنا أن التحول الاجتماعي بدأ أثناء الحرب العالمية الثانية، وفي هذه الفترة بالذات بدأت بالتشكل الاحزاب ذات البرامج الفكرية الواضحة أو الأحزاب الايديولوجية. ولقد كانت هذه الاحزاب هي البؤر التي تفاعلت فيها الافكار للتوضح تدريجياً .

د- بعد الحرب العالمية الثانية:

لم يكن كل ما تقدم من نضال سياسي ومن مناقشات نظرية إلا تلمسا لطريق بدأ يكتشفها الفكر العربي في سورية بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما يزال حتى الآن وبالرغم من الأشواط التي قطع والانجازات التي حقق، في أولها، كان قد تأمل كثيراً في الاحداث الخطيرة التي تعاقبت عليه وعلى العالم، وناقش فيها وفي الافكار اتي وجهتها، وكانت هذه المناقشات والتأملات بمثابة مرحلة تخمر تحولت بعد الحرب العالمية الثانية إلى ثورة فجرت المجتمع العربي السوري من الاساس بنى وفكراً ثلاثة اكتشافات قلبت الفكر العربي في سورية رأساً على عقب.

1- سورية تكتشف الامبريالية :

كانت سورية قد عانت من الاستعمار ما عانت في كل المجالات خلال قرون ولكنها لم تكن لتدرك أعلى مراحل الاستعمار أي الامبريالية وما تجره من ويلات، فالاستعمار يستغل ويجزي، أما الامبريالية فتجتث الشعب من جذوره لتجعل منه شتاتاً وتبيده في نهاية المطاف.

فما أن كان الجلاء، ما أن كان التحرر السياسي حتى كانت نكبة عام 1948 إذ أقامت الامبريالية في قلب المشرق العربي دولة اسرائيل المصطنعة رأس جسر لها وثكنة مزودة بأحداث الأسلحة وأكثرها تدميراً تهدد الكيان العربي ذاته، وتكتشف سورية حليفها الطبيعي في المعسكر الشرقي الذي زودها بالأسلحة الوقائية، فترد

الامبريالية بالعدوان الثلاثي، ويهب الشعب في حركة تنبعث من صميمة ليحقق الوحدة مع مصر الثورة خطوة الأولى على طريق الوحدة الكبرى، فترد الامبريالية بفك هذه الوحدة قبل أن تستكمل شروط وجودها.

ولكن الشعب الذي بدأ ثورته الاجتماعية لن يقف في منتصف الطريق، وها هو في الثامن من آذار يستجمع قواه ليحقق المجتمع الاشتراكي. وما تزال المعركة مستمرة اليوم كما بالأمس، وغداً كما في اليوم الحاضر.

2- سورية تكتشف الشعب :

قلنا أن بوادر التحول الفكري بدأ مع مثقفين تمرسوا بالنضال وهم على مقاعد المدارس الثانوية، فالمدرسة إذا طريق ناجح من طرق التحرير الشعبي . كان الانتداب قد جعل من المدرسة أداة لتخريج موظفين يسيرون في ركابه. وما زال كابوس الانتداب حتى أقبل الشعب على المدرسة اقبالاً لا مثيل له في تاريخ العالم, فعدد الطلاب يتضاعف كل سنة بالرغم من أن الحكم البرجوازي الذي هو امتداد للاستعمار كان ما يزال يناهض هذا المطلب الشعبي الاساسي .

وبعد الاستقلال مباشرة أنشئت الجامعة السورية في دمشق كل فروعها الاساسية، وأمتدت إلى حلب،عاصمة سورية الثانية، وما تزال في توسع مستمر، هذا بالإضافة إلى العدد الضخم من الطلاب السوريين الذين يكملون تحصيلهم العالي في شرق الأرض وغربها.

والذي يسترعي الانتباه حقاً هو أن الطلاب على كل المستويات من التعليم الابتدائي إلى التعليم العالي،من أنباء الشعب الكادح ، فهم بأغلبيتهم يعملون، وبذات الوقت يتابعون تحصيلهم . وأذكر فيما أذكر شخصياً أن أحد الطلاب الذين تقدموا إلى فحص القبول لدار المعلمين الابتدائية عام 1954، مثل أمام اللجنة في ثياب ممزقة ويدين مغموستين بالإسفلت فقيل له أن على طالب دار المعلمين أن يكون نظيف الجسم على الأقل، وأجاب : اقسم بشرفي وشرف هذا المعهد أني منذ الصباح الباكر اشتغل مع عمال تزفيت الطرقات، ولم أحصل على ما ذونية ساعة لتقديم الفحص إلا بعد جهد جهيد.

وأذكر أيضاً أن أحد الدبلوماسيين الاجانب زار جبلاً من جبال سورية الساحلية ولما عاد قال لي مدهوشاً ما يلي : يذكر التاريخ أن الزائر لهذا الجبل في القرون الوسطى كان يدهش عند رؤية النساك والزهاد، يخرجون بالعشرات من المغر والكهوف وهم يصلون، أما الآن فهو يرى عوضاً عن النساك طلاباً منكبين على كتبهم بالعشرات يعدون فحوصهم.

وأن دلت هذه الحركة على أمر، فهي تدل على أن الحركة التعليمية فجرت الفكر الشعبيي من الصميم كما فجر النضال ضد الاستعمار، قواه الكامنة.

3- سورية تكتشف الاشتراكية، ومعها الطريق التي تؤدي إلى الوحدة والحرية:

رأينا أن النضال السياسي قبل الحرب العالمية الثانية كان تقريباً بدون جدوى لأن الفكر إذ ذاك لم يطرح المسألة طرحاً صحيحاً ولم يتبين بعدها الاساسي أي البعد الاجتماعي الشعبي. ويكتشف الفكر العربي السوري خلال الحرب الاشتراكية وفي عام 1947، وعند تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي، يحدد الاهداف الثلاثة ألا وهي الوحدة والحرية والاشتراكية التي يجب على الأمة العربية أن تحققها هدفاً أخيراً، كي تصبح بمستوى تاريخها وبمستوى القرن العشرين. ولكن الاشتراكية، ما تزال في ذهنه فكرة رومنتيكية غائمة كفكرة العروبة وفكرة الحرية .

وتبدأ المعركة المريرة والطويلة الأمد عندما يكتشف الامبريالية بعد نكبة عام 1948 نقول أن هذه المعركة مريرة لأنها معركة حياة أو موت معركة وجود أولا وجود، ونقول أنها طويلة الامد لأن القوى فيها غير متكافئة، فالامبرالية تملك أكبر قوة حربية عرفها التاريخ، أما الشعب السوري،فلا يملك إلا قوة الإنسان، قوة الشعب، فما هي الطريق التي تؤدي إلى الشعب لتفجر قواه الحية؟ لم يكن باستطاعة الفكر وحده أن يشق طريقه إلى الشعب فالفكر الكبير الفكر الذي يحول التاريخ من الداخل ليس في أسطر الكتب. بل أنه ينشق عن النضال اليومي.

ويبدأ هذا النضال على شكل متواضع في أول الأمر فهو يتحدد، لمناهضة الاقطاعية بمطلب بسيط وبديهي : تحديد الملكية الزراعية، لمناهضة البرجوازية بمطلب بسيط أيضاً : تحديد ساعات العمل بالنسبة للعمال، وبمطلب أبسط أيضاً هو منع تسريح العامل التعسفي ومع أن هذه المطالب أولية وبديهية، ومع أنها نقطة ابتداء متواضعة، فهي تلهب حماس الجماهير وتدفعها إلى التظاهر وهي أيضاً تبعث في نفوس الاقطاعيين والبرجوازيين الشعور بالقلق.

فيكتب أحد ممثليهم، أثر تظاهرة فلاحية كبيرة، يكتب قائلاً : أيها الاقطاعيون في سورية اتحدوا.

والواقع أن الأحداث تخطت الفكر الذي اطلقها واجبرته على أن يعمق ذاته ويبدل مواقعه. فالوحدة بين سورية ومصر عام 1958 كانت رداً حقيقياً وسليما على تحدي العدوان الثلاثي، ولكنها لم تترسخ لأنها بقيت مترددة بين خطين، خط التجمع الوطني الذي سرعان ما انهالت عليه البرجوازية الوطنية لتعزل الشعب الكادح، والخط الاشتراكي الذي يقوم على هذا الشعب.

ولما انتبه الوحدويون إلى حقيقة المسألة فقاموا بتاميمات 23 تموز 1961 ردت البرجوازية حالاً في أيلول من ذات العام بفك الوحدة وتسليم زمام المبادهة للبرجوازية التي ألغت التاميمات وعندئذ رد الشعب في الثامن من آذار بحركة

عارمة أجثثت جذور البرجوازية إذ تبنت الاشتراكية منهجاً لتنظيم المجتمع في سورية عل اساس العمل أي على اساس القوى المنتجة و الديمقراطية الشعبية.

ويمكن القول أن الثامن من آذار من عام 1963 كان نقطة تحول أساسية في الفكر السوري .

قلنا أن الفكر العربي في سورية تأثر بين الحربين بمبادئ الثورة الفرنسية، وأثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة تعرف إلى الفكر الاشتراكي من خلال بعض مؤلفات ماركس وانجلز ولينين وغيرهم من أعلام الفكر الماركسي،أو من خلال بعض التعليمات عليهم ولكنكم تعرفون أن هذه المؤلفات لا تفهم ولا تتضح ابعادها إلا إذا تحولت إلى عمل في المعاناة اليومية للتحويل الاشتراكي وظهرت مؤلفات أدبية لفهم الواقع العربي والسوري بشكل خاص على ضوء التحليل الاشتراكي، كما ظهرت مؤلفات فكرية لذات الغرض ولكن يمكن القول أن كل هذه المحاولات بقيت جزئية إلى أن بدأت المعركة الحقيقية على الصعيد الشعبي عندما أخذت سورية تستعيض عن التنظيم العشائري والطائفي الخ.... بالتنظيم النقابي وبالديمقراطية الشعبية. وها هي الآن الاتحادات من مختلف الأنواع والنقابات وجمعيات الكتاب وما شاكلها تتكاثر بسرعة مذهلة، فوزارة التربية بدلت في العام الماضي مناهجها على اسس جديدة تخطط للتعليم تبعاً لحاجات الانتاج كما أن وزارة الثقافة أخذت منذ ثلاثة أعوام تترجم كتبها عن التجارب الاشتراكية في الكتلة الشرقية وفي بلدان العالم الثالث، وقد وضعت هذا العام برنامجاً لترجمة اصول الفكر الاشتراكي منذ نشأته إلى ايامنا .

ترون مما تقدم أن الفكر العربي في سورية قد كان متفاعلاً مع تجربة بسورية في مختلف المجالات وها هو الآن يضع الاسس الأولى التي يعتقد أنها ستكون المنطلق الأول للبعث من خليج العروبة إلى محيطها. ولكن يجب ألا ننسى أنه ما يزال في أول الطريق وأنه سيتعرض لمحن كثيرة نأمل أن يخرج منها منتصراً لأن النصر بالنتيجة للحقيقة.

الفكر السوري والعالم العربي

قلنا أن سورية لم تفكر يوماً بذلتها ولذاتها لأنها منذ فجر نهضتها الأولى اتخذت العروبة منتلطقاً، وسأذكر لكم الآن بعض الحوادث المعبرة والتي تدل على مدى تأثير الفكر السوري في العالم العربي، واستبعد هذه الحوادث من تجارب عانيتها شخصياً مع زملائي من الطلاب ايام الدراسة وبعدها ترقى أولى لقاءات الطلاب السوريين مع زملائهم من بقية الاقطار العربية إلى السنوات الأولى التي سبقت الحرب العالمية الثانية. كنا إذ ذاك نفر من الطالب في فرنسا نستمع إلى الدروس الجامعية ونلتقي بعدها

مع بقية الطلاب العرب في المنتزهات والمقاهي وقاعات المطالعة فنطرح أول ما نطرح فكرة العروبة، ونناقش على طريقتنا الخاصة فلا نلقى من زملائنا إلا الصد والاستنكار، كانت إذ ذاك مصر تنادي بالفرعونية، ولبنان ينادي وبالفينيقية ، أما مغرب العرب فيعتبر ذاته جزءاً من فرنسا عليه أن يناضل كي يصبح لسكانه حقوق الفرنسيين ذاتهم .

وأذكر فيما أذكر أن أحد الطلاب المصريين صرخ يوماً بأعلى صوته قائلاً لنا : وما القاسم المشترك بيننا وبينكم ؟ أهو التاريخ؟ إن تاريخنا يَرقى إلى ما قبل العرب بكثير. أما اللغة أننا نتكلم المصرية. ثم كانت ثورة يوليو لعام 1952 التي أرادت لذاتها لأن تكون شعبية فإذا بها تصطدم بالامبريالية، وتدرك أن مصيرها مرتبط بمصير العرب فتكشف عروبتها وتتبنى شعارات (الوحدة والحرية والاشتراكية) التي كان الفكر العربي في سورية قد حددها قبل ذلك بكثير وعام 1949 وقبل الثورة الجزائرية بخمس سنوات كان المثقفون الجزائريون يغضون الطرف احتقاراً عندما يذكر امامهم اسم العروبة. ولكن ما أن تبدأ ثورتهم الجبارة حتى يكتشفوا في النضال المشترك البعد العربي لوجودهم إذ أن هذا الوجود مرتبط مصيرياً بالوجود العربي.

وأذكر أخيراً أني القيت محاضرة في مؤتمر تربوي عام 1957 عقد في المغرب أي بعد الاستقلال بسنة واحدة وفي غمرة الثورة الجزائرية، بينت فيها أن تعريب التعليم بكل درجاته مسألة مصيرية إذ لا يمكن أن تقوم نهضة شعبية إلا انطلاقاً من اللغة القومية . وأقضي شهراً كاملاً في المغرب في مناقشات حادة حول هذا الموضوع الخطير فلا القى في أحسن الحالات إلا الصد المهذب. والآن وبعد عشر سنوات ها هي اللغة العربية تحل تدريجياً محل الفرنسية في مغرب العرب كله.

كما أن الاشتراكية تصبح منهج العمل والنظر في كل الأقطار العربية التي تبنت الثورة على التخلف منطلقاً لحل مشاكلها الاجتماعية والسياسية.

أجل لم تكن سورية على ضلال عندما قرنت في وحدة تأليفه بين الوحدة والحرية والاشتراكية فهذه الافكار الثلاثة العظيمة هي نقطة الانطلاق والهدف الاخير للثورة العربية. ولكن أقول مرة ثانية اننا ما نزال في أول الطريق، إذ علينا أن نحارب الرجعية في نفوسنا وفي مجتمنا حتى نكشف في النضال المستمر عن أبعاد منطلقاتنا.

وأنا إذ اتوجه إليكم بهذه الكلمة اعتقد أنكم ستكونون، انتم وكل بلدان المعسكر الاشتراكي إلى جانبنا، فالمعركة واحدة وفي القرن العشرين أما أن تكون الثورة ثورة الإنسان ضد الظلم وفي سبيل العدالة أولاً تكون. والنظر بدون شك، للعدالة ، للحقيقة، للشعب، للانسان .